الملتقى الوطني الثاني:" البلاغة العربية من النظم إلى الاسلوبية"

يومي 17-18 أفريل 2018

جامعة 20 اوت 1955 سكيكدة

عنوان المداخلة: "أصالة البلاغة العربيّة من الخليل بن أحمد إلى محمد عبده

أ.د/ رابح دوب

الملخّص:

تهدف هذه المداخلة لبيان أصالة البلاغة العربيّة منذ نشأتها إلى بداية بعثها على يد محمد عبده في نهاية القرن 19 الميلادي عندما قرّر كتابي عبد القاهر الجرجاني (471 هـ)، أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز على طلاب اللّغة العربيّة بالأزهر الشّريف، وهي البداية الحقيقيّة لبعث البلاغة العربيّة وإحيائها بعدما مرّ عليها زمن طويل من الرّكود والجمود، بحيث أصبحت البلاغة عبارة عن تلخيصات ونظوم وحواشي، لكن على الرغم من هذه الانتكاسة في البلاغة فإنّها بقية مدينة ووفيّة للنهج العربي الأصيل، فلم تتأثّر بالتيّارات الأجنبيّة الوافدة مثل اليونانيّة واللاتينيّة والفارسيّة.

مفهوم البلاغة والفصاحة:

لعلّه من الضّروري قبل الحديث عن نشأة البلاغة وتطوّرها أن نوجز القول في مفهوم البلاغة والفصاحة:

البلاغة لغة: هي الانتماء والوصول، وسُميّت بلاغة لأنّها توصل المعنى إلى قلب السّامع فتمكّنه في نفسه.

أمّا الفصاحة لغة: فهي الظهور والبيان أو النّقاء والصّفاء.

وهناك بعض الخلط في مفهوم البلاغة والفصاحة عند بعض الدّارسين لكنّ الحدّ بينهما واضح جدا.

البدايّات الأولى للبلاغة:

إنّ البلاغة العربيّة بدأت ملاحظات بسيطة ثم بدأت تتطوّر شأنها شأن كلّ العلوم التي تبدأ بدايّة بسيطة ثم تتركب حتى تصل الذّروة.

فالبلاغة عند عامر العدواني –وهو من خطباء العصر الجاهلي–هي: "تحليّة المعنى المزيز وتطبيق التحزيز"، وهذه المقولة المتقدّمة جدا لها أهميّتها القُصوى من حيث الزّمان لأنّنا سنجيب عن هذا السؤال: هل البلاغة صِرفة أم أنّها بشيء منها للأمم الأخرى وبخاصّة (اليونان والفرس والهند).

كما نجد كلمة بليغ وردت في القرآن الكريم، نجدها في سورة النّساء الآية 63 في قوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴾، وقد ذهب الزّمخشري في تفسير كلمة (بليغ) مذهبا نفسيّا إذ قال: " أيّ قولا صوابا مقنعا في ذاته، يجعلهم يغتمون به اغتماما".

كما نجد هذه الصيغة (بليغ) ترد في حديث الرّسول – صلّى الله عليه وسلم –: إنّ الله يبغض البليغ الذي يتخلّل بلسانه تخلّل الباقرة"، فهنا كلمة (بليغ) تحمل شحنة دلاليّة سلبيّة لأنّها تبرز التّفيقه والتّظاهر بالفصاحة في غير محلّها إظهارا للتّفاخر والتّعالي لذلك قيّدها الرّسول الكريم –صلّى الله عليه وسلّم– بعبارة: (الذي يتخلّل بلسانه).

أمّا في العصر الأموي فنجد كلمة البلاغة قد أخذت مفهومها الأصليّ، وذلك في الحوار الذي دار بين معاويّة بن أبي سفيان والصّحابي صحّار بن عيّاش العبدي، عندما أُعجب معاويّة بفصاحة صحّار فسأله: ما هذه البلاغة التي فيكم؟ فأجابه صحّار: شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا، فسأله معاويّة مرّة أخرى: وما تُعدّون البلاغة فيكم؟ فأجابه صحّار: هي الإيجاز. فسأله معاويّة مرّة ثالثة: وما الإيجاز؟ فأجابه صحّار: الإيجاز أن تُجيب فلا تُبطئ وأن تقول فلا تُخطئ".

نلاحظ من خلال هذا الحوار وضوح معالم البلاغة فلا نكاد نجد إضافات أخرى على مفهومها في العصور اللاحقة، على الرّغم من أنّ الجاحظ (ت 255 هـ) قد أدار معظم مؤلفاته حول البلاغة أو البيان والتبيّين كما كان يحلو له أن يطلقه على أساليب وأفانين القول، فبفضل ثقافته الواسعة ومعارفه العميقة بلغة العرب استطاع أن يصل إلى لمّ شتات البلاغة، وذلك في التّعريف الذي راقه فاختاره من بين جميع تعريفات البلاغة في قوله: " ومن أحسن ما اجتبيناه ودوّناه قولهم في البلاغة: لا يستحقّ

الكلام اسم البلاغة حتّى يُسابق معناه لفظه، ولفظه معناه فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك".

ثم تبعه في ذلك مَن تأثّروا به وعلى رأسهم: ابن قتيبة (ت 276 هـ)، والمبرّد (ت285 هـ)، وثعلب (ت291 هـ)، والرماني (ت386 هـ)، ثم جاء من بعدهم أبو هلال العسكري (ت 395 هـ) فنقل البلاغة نقلة نوعيّة إذ أخذ على الجاحظ خلطه في كتبه بين البلاغة وعلم الكلام، فقال: " لمّا وجدت أنّ قضايا البلاغة مبثوثة في ثنايا كتاب البيان والتّبيّين وتكاد تضيع مع القضايا الكلاميّة"

أردتُ أن أُخلّص البلاغة مما شابها من قضايا علم الكلام، لذلك قال أستاذي شوقي ضيف في كتابه البلاغة تطوّر وتاريخ: "صنّف أبو هلال العسكري مع المتأدّبين الذين أرادوا أن يُخرجوا البلاغة من دائرة علم الكلام وهذا غير صحيح، لأنّ المحضن الرّئيسي للبلاغة هو علم الكلام"

وبالفعل بدأت البلاغة مع الملحوظات اللّغويّة بدءً من الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175 هـ) وتلميذه سيبويه (ت 180 هـ)، ثم عمرو بن العلاء والأصمعي...

وهكذا مرّت البلاغة العربيّة بمراحل خصبة في تاريخها حتى وصلت إلى العصور الوسطى بعدما ازدهرت على يد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) ثم تطبيقات الزّمخشري (ت 538 هـ) في الكشّاف.

وبالفعل أصبحت البلاغة عبارة عن تلخيصات ونظوم، فعاب التّذوّق وحلّ محلّه التّقعيد وركنت البلاغة إلى فترة طويلة من الرّكود...

حتى جاء محمد عبده (ت 1905م) وقرّر أن يحي المنهج القديم لعبد القاهر الجرجاني ففرض على طلّاب الأزهر الشّريف دراسة كتابي الجرجاني دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وبذلك رجعت البلاغة العربيّة إلى المنبع الصّافي وإلى الذّائقة الفنيّة فكانت البلاغة عربيّة صرفه غير مدينة لأيّة أمّة من الأمم لا يونانيّة ولا فارسيّة ولا هنديّة.